

الكرامة

كرامة الوطن من كرامة المواطن

د. رؤوف عباس يناقش الأستاذ هيكل - بصراحة عن عبد الناصر والثورة

18 يوليو 2006

أتابع باهتمام بالغ الحلقات التي يقدمها الأستاذ محمد حسنين هيكل في قناة "الجزيرة" حول ذكرياته عن ثورة يوليو فالرجل لعب دورا بارزا في الحقبة الناصرية كمعبر عن اتجاهات النظام والزعيم حتى إننا كنا ننتظر "أهرام الجمعة" لنقرأ مقاله الأسبوعي "بصراحة" لنعرف إلى أين نسير؟ كذلك لعب هيكل دورا في توكيد أركان مسيرة السادات على طريق عبد الناصر "بأستيقظة" ونال على ذلك الدور الخطير جزاء سنمار .. من هنا تأتي قيمة حلقات "مع هيكل .. تجربة حياة"، ومن هنا أيضا كان أحد أسباب اهتمامي بمتابعتها.

أما السبب الآخر فهو اهتمامي الشخصي بثورة يوليو وعبد الناصر التي تمثل لأبناء جيلي نقطة انطلاق لمشروع وطني نهضوي لم تتح الفرصة له لتحقيق أهدافه كاملة لأسباب عدة بعضها محلي وبعضها الآخر إقليمي ودولي. ولذلك منذ نحو العشرين عاما أقوم بتجميع ما يتم الإفراج عنه بدور الوثائق البريطانية والأمريكية من وثائق تتصل بمصر والمنطقة العربية في الحقبة الناصرية كما حرصت على تجميع كل ما نشر وينشر من مذكرات من لعبوا أدوارا مركزية أو هامشية في التاريخ تلك الحقبة، ليكون هذا وذلك من مصادر دراسة عن تلك الحقبة العبقورية المهمة من تاريخ مصر والوطن العربي.

ولا أعزّم أن أقدم في هذا المقال نقدا لما شاهدت من حلقات "مع هيكل .. تجربة حياة" لعدة أسباب فارجال لايزعم أنه يؤرخ بهذه الحلقات- للثورة أو لعبد الناصر، وهو ما دأب على تأكيده في كل مؤلفاته. كما أنه ليس من أصول النقد العلمي مناقشة عمل غير مكتمل أو التعامل معه بطريقة جزئية. ولكنني وجدت أنه ربما كان من المناسب أن ألقى بعض الضوء على نقطة مهمة أضفى عليها هيكل ظللا كثيفة عند حديثه عن الضباط الأحرار عامة وعن عبد الناصر خاصة .

فنقطة الانطلاق عند هيكل كما فهمتها وفهمها غيري من جهور المشاهدين أن تنظيم الضباط الأحرار لم يبع سوى إصلاح أمور الجيش، ولا شيء غير ذلك، فلم تكن هناك أهداف سياسية واضحة ولا حتى خفية، وأن الأهداف الستة الشهيرة أو المبادئ الستة صيغت فيما بعد، وأن الضباط الأحرار "فوجئوا" بوقوع السلطة في يدهم دون أن يعرفوا مايفعلونه بها فوقعوا في حيص بيص ولجأوا إلى المدنيين الذين اطمئنوا إليهم ليتولوا صناعة النظام الجديد. وعلى طريقة الأستاذ هيكل المبهمة في التشبيه تصور أن هناك "غرفة ولادة" شغل فيها رجال السياسة والقانون في "توليد" الانقلاب أو "الحركة المباركة" ليخرج إلى النور الوليد الجديد. أما الأب الشرعي للوليد المترقب "أى الضباط الأحرار" فظلوا خارج الغرفة ربما يقظون الممر أمام غرفة العمليات جينة وذهابا في انتظار سماع الصرخات الأولى للوليد التي تنبئ عن خروجه إلى النور فتتفرج أساريهم كما يفعل الآباء -عادة- في مثل الموقف !!

وبنفس الطريقة الدرامية قدم لنا تصويرا لزيارته الأولى للبكباشي جمال عبد الناصر في بيته المتواضع (بناء على طلب عبد الناصر) وهي زيارة دامت نحو الأربع ساعات كان الحديث فيها عاما خرجنا بانطباع أن مطعمه كان عن شخص عبد الناصر وعن تلك المحاولة التي لم تتم لكتابة قصة أيام التلمذة.

ورغم أن الأستاذ هيكل يؤكد أنه لم يكن لديه علم عن الضباط الأحرار وتنظيمهم وسمى -بأمانة- أولئك الذين كانوا أقرب إليهم منه من زملائه الصحفيين، فإن هذه الصورة المهترئة الغربية لأولئك الرجال، وعلى رأسهم عبد الناصر تبعث على التساؤل بعدما اقترب من عبد الناصر ورفاقه اقترابا يجعله يتفوق على أقرانه من أولئك الزملاء الذين عرفوا بعض الضباط الأحرار قبيل قيامهم بالثورة في 23 يوليو 1952 .

والصورة التي رسمها للضباط الأحرار إعادة إنتاج لصورة العسكريين الذين قادهم أحمد عربي (1881-1882) لتحقيق مطالب إصلاحية داخل الجيش ثم تطورات الحركة بعد تكوين "جبهة" ضمت المدنيين الناقمين على التدخل الأجنبي والسلطة المستبدة وهو سابق يختلف تماما عن السياق الذي تكون - في إطاره - حركة الضباط الأحرار، ولا يوجد في كل ما نشر من مذكرات بعض الضباط الأحرار ما يؤكد أن الهدف الرئيسي لتنظيم الضباط الأحرار هو إصلاح الجيش لأكثر ولا أقل وإلا كان الأسلوب الذي اتبعوه لتحقيق تلك المطالب "إن صحت" فيه قدر كبير من التهور وسوء التقدير وضيق

الأفق، فهناك وسائل كثيرة لتحقيق مطلب الإصلاح ليس من بينها "الانقلاب" وليس لدينا فيما أعلم- نماذج لانقلابات من هذا النوع كما أن التاريخ الحديث لم يشهد انقلابا عسكريا إلا وكان هدفة الرئيسي الاستيلاء على السلطة ولم يكن مقام به الضباط الأحرار سوى استيلاء على السلطة وليس من المعقول أن يقدم مثل هذا التنظيم العسكرى السرى على عمل من هذا النوع دون أن تكون لديه أهداف سياسية يرمى إلى تحقيقها .

حقا جاء تشكيل عبد الناصر لتنظيم الضباط الأحرار نتاجا لإدراك ضباط الجيش أن فساد نظام الحكم في مصر كان المسئول الأول عن ما حدث على أرض فلسطين عام 1948، وأن بقاء النظام لن يحقق الاستقلال الوطنى المنشود، ولن يجد حلا للأزمة الاجتماعية المتفاقمة ومن ثم كان الضباط الأحرار يجمعون - ضمنيا - على ضرورة إسقاط النظام . وعندما يفكر العسكريون فى إسقاط النظام فليس هناك سوى صيغة الانقلاب العسكرى .

وإذا كانت الصدفه لعبت دورها فى نجاح الضباط الأحرار فى الاستيلاء على قيادة الجيش واعتقال كبار الضباط الذين اجتمعوا لاتخاذ قرار ضد أولئك الضباط الذين يثيرون المتاعب، وذلك عندما تحرك يوسف صديق قبل الموعد المحدد لساعة الصفر بساعة كاملة، وربما كانت النتيجة سلبية لو لم تحدث تلك المصادفة، ولكن ذلك لا يعنى أن الاستيلاء على السلطة كان محض مصادفة لم يدخلها الضباط الأحرار فى اعتبارهم.

كان تنظيم الضباط الأحرار تنظيما "عنفوديا" بدأ تشكيله عام 1949 جمال عبد الناصر ليضم بعض الخلايا السرية التى كونها بعض الضباط خلال الحرب العالمية الثانية، وخلايا أخرى جديدة شكلها عبد الناصر، ولم يكن أعضاء كل خلية يعرفون أحدا سوى الضباط الذى كون خليتهم، وهو الشخص الوحيد الذى يتصل برئيس التنظيم أو أحد زملائه فى القيادة وبلغت السرية درجة عالية من الدقة عندما اكتشف أعضاء الخلايا أن لهم زملاء فى نفس التنظيم عشية قيام الحركة أو قبلها بأيام .

كما أن أحدا لم يكن يعلم علم اليقين عدد أعضاء التنظيم سوى جمال عبد الناصر فهو -وحده - الذى يختزن فى ذاكرته (وليس على الورق) أسماء أعضاء التنظيم جميعا، وهو الذى كان يعرف من أدى منهم الواجب الذى أسند إليه عند قيام الحركة، ومن خائنه شجاعته عن أداء الواجب دون أن يخونه ضميره فيكشف عن التنظيم ويفشى أسراره .

ولم يحدث حصر "رسمى" لمن سمو بالضباط الأحرار سوى فى القرارين الجمهوريين الذين أصدرهما السادات بصرف معاشات استثنائية لنحو ثلاثمائة ظابطا وهى قوائم ضمت من كانوا أعضاء فى التنظيم السرى للضباط الأحرار، ومن شاركوا فى الحركة عند قيامها بدوافع وطنية دون ارتباطهم بصلات تنظيمية سابقة، ومن استعان بهم مجلس قيادة الثورة عيشة تشكيله من دفعه الدارسين بكلية أركان الحرب من تلاميذ عبد الناصر الذين تمت الاستعانة بهم لشغل المراكز التى أوجدها مجلس قيادة الثورة فى الجهاز المدنى وفى الجهاز الأمنى أيضا .

ويكاد يجمع من تناولوا موضوع تنظيم الضباط الأحرار أن العدد الحقيقى للأعضاء فى جميع خلايا التنظيم لم يكن يصل إلى المائة ضابط ولكن أحدا لا يقدم رقما محددًا لأن من يعرف ذلك الرقم هو جمال عبد الناصر نفسه، كما أن أحدا لا يعلم علم اليقين عدد الخلايا التى تكون منها التنظيم أو عدد أعضاء الخلية الواحدة .

نلخص من ذلك إلى أن مفتاح نجاح التنظيم جاء من تلك السرية والضوابط الأمنية التى اتبعها قائده جمال عبد الناصر .

وتنظيم بهذا القدر من الدقة فى المعايير التى يتم على أساسها تجنيد الأعضاء لا يجمع أناسا ليس لهم هدف سوى إصلاح شأن الجيش بل يجمع عناصر وطنية من الضباط أصحاب الاتجاهات السياسية ومن ثم يصعب تجنيد الأعضاء إذا لم تكن هناك أهداف سياسية متفق عليها ذات طبيعة عامة فى طبيعتها ما تمثل إجماعا للحركة الوطنية المصرية مثل تحقيق الاستقلال الوطنى والقضاء على الفساد وتحقيق العدالة الاجتماعية وهى أهداف برزت بإلحاح على الساحة السياسية منذ مطلع الأربعينيات وتعددت رؤى التيارات السياسية حولها .

ومن هنا جاءت " الأهداف الستة " التى أجمع عليها تنظيم الضباط الأحرار (قبيل قيام الثورة وليس بعد قيامها) تتسم بالطابع العام فتحدد تلك الأهداف دون الدخول فى تفاصيل السبل التى يراها التنظيم لتحقيق تلك الأهداف حتى لا يؤدى الجدل حولها بين أعضاء خلايا التنظيم إلى وضع العراقيل فى طريق الحركة المنشودة .

ولايعنى ذلك أن الضباط الأحرار عزلوا أنفسهم عن التيارات الموجودة على الساحة السياسية عزلا تاما، بل كان منهم من ينتمون إلى هذا التيار أو ذاك انتماء عضويا أو فكريا، وهناك إجماع على أن جمال عبد الناصر حرص على أن يكون الانتماء لتنظيم الضباط الأحرار على أساس فردى وليس على أساس تمثيلى الفاصائل سياسية معنية حتى يقى التنظيم من الأخطار التى قد تتجم عن ذلك على بنية التنظيم وأمنه .

ومن المعروف أن جمال عبد الناصر نفسه احتك عن قرب بحركات الرفض السياسى والاجتماعى التى وجدت على الساحة السياسية عندما تفتح وعيه السياسى منذ أن كان تلميذا بالثانوى، من مصر الفتاة إلى الحركة الشيوعية مرورا بالأخوان المسلمين الذين مكث بينهم فترة ثم نفذ يده من كل تلك التنظيمات لإدراكه أنها لا تتوفر لها القدرة على خدمة الأهداف الوطنية وتحقيق التغير الجذرى المنشود، ولايعنى ذلك أنه قد تخلص من الأفكار التى عرفها عن تلك التيارات، فجاء فكر عبد الناصر هجينا من أطروحات الحركة الوطنية فى الأربعينيات إضافة إلى تأثره الشديد بمنهج قيادة التنظيم

السرى فى إدارته لدفة السياسة المصرية عندما حكم قبضته عليها، وهذا حديث يقصر المقام - من حيث الطبيعة والمساحة- عن إمكانية الخوض فيه .

ولكنى أود هنا أن أوجه عناية القارئ الكريم إلى بعض اللمحات التى قد تلقى الضوء على أسلوب العمل السياسى عند عبد الناصر. فقد كان الرجل لايفضى لزملائه من أعضاء القيادة وأعضاء التنظيم إلا بما يريد أن يعمل كل واحد منهم كما كان يكلف بالمهمة الواحدة أكثر من شخص واحد دون أن يعلم كل منهم بما يفعله الآخر، وظل هذا الأسلوب متبعاً فى إدارة دفة السياسة الداخلية والخارجية وإدارة الأزمات .

ورجال من هذا الطراز يختلف تماماً عن صورة الرجل الذى وصفه لنا الأستاذ هيكل عندما دعاه عبد الناصر لزيارته فى بيته: بسيط طيب خجول يستعرض أمام الصحفى اللامع بعض ما كتب أيام التلمذة، فمن كانت له مثل هذه الصفات لا يستطيع أن يقود تنظيمًا سرياً على هذه الدرجة من الدقة فى التنظيم ولا يقلب نظام الحكم دون أن يكون هناك هدف سياسى يسعى لتحقيقه وإذا كان الأستاذ هيكل قد صاغ " فلسفة الثورة " التى عبر فيها عبد الناصر عن فكره، ونجح فى إبراز أفكار الرجل بصورة دقيقة، فلا مرأ أنه لم يكن مصدر وحى لعبد الناصر كما أن كتاب "فلسفة الثورة" لم يكن أداة إعلامية لتسويق عبد الناصر، بل جاء تعبيراً دقيقاً عن الرؤية السياسية للرجل التى جاء التعبير عنها سابقاً على نشر "فلسفة الثورة".

لقد جسد عبد الناصر إيمانه بضرورة تحرير الوطن العربى من الاستعمار بتأسيس " صوت العرب" فى يوليو 1953، وأنشأ فى الوقت نفسه مكتباً للشؤون العربية يجمع المعلومات عن الحركات الوطنية فى الوطن العربى وبمد جسور الصلات معها والتلقى الدكتور مصطفى الحنفوى الخبير المصرى الشهير بقضية قناة السويس فى أغسطس 1953 ليدير معه حديثاً عن حق مصر القانونى فى قناة السويس، ثم يكلفه منذ 1954 بإعداد الدراسات القانونية التى تخول لمصر الحصول على حقها فى القناة حتى كلفه فى 24 يوليو 1956 بإعداد القرار الجمهورى بتأميم شركة قناة السويس، وفى نفس الوقت أنشأ ثلاثة مكاتب متوازية لجمع البيانات وإعداد الدراسات عن قناة السويس لم يكن أى منها يعلم بوجود الآخر إلا عند التأميم .

هذه لمحة لجانب من شخصية عبد الناصر الذى رأى فيه هيكل (الرجل الطيب البسيط الخجول)، ولم يقل لنا هيكل لماذا دعاه عبد الناصر للقائه فى هذا الوقت المبكر فى الشهر الأولى لقيام الحركة فقد كان عبد الناصر يبحث عن سبيل لفتح ملف القضية الوطنية مع الإنجليز ورأى ما للدور الذى لعبه السفير الأمريكى جيفرسون كافرى من أهمية فى نقل الرسائل بين مجلس القيادة والإنجليز وكذلك فى خروج الملك من مصر بعد تنازله عن العرش يوم 26 يوليو 1952 (ولا يقبل عاقل أن يكون ذلك التنازل والخروج فكرة طرأت على خاطر) فأراد عبد الناصر ان يفتح قناة (غير رسمية) مع أمريكا للضغط على الإنجليز من أجل التفاوض على الجلاء فلم يكن هناك من يعرف الطريق لذلك سوى هيكل الذى ربطته صداقة بكيرفت روزفلت رجل المجازبات الأمريكية فى الشرق الأوسط، وقد أوفد عبد الناصر هيكل إلى أمريكا فى مهمة تتصل بفتح القناة وأوفد مصطفى أمين بعده لنفس الغرض .

واستخدم فى نفس الوقت نديم دمشقيه الدبلوماسى اللبنانى ورجل المجازبات الأمريكية، كل لوجهة معينة لتصب المعلومة فى جعبة عبد الناصر فيوظفها للهدف المرسوم. وهل كان عبد الناصر فى تلك الأيام يملك ترف ضياع أربع ساعات مع الأستاذ هيكل لمجرد الدردشة الاجتماعية التى تنضح رقة وخجلاً!؟

إن جمال عبد الناصر أحد العمالقة الذين صنعوا تاريخ القرن العشرين وسيظل الجدل حوله وتقييم ثورة يوليو الشغل الشاغل للمؤرخين على مر السنين وليس مجرد قائد لتنظيم عسكري ينشد إصلاح أحوال الجيش جرفته السياسة فجأة فراح يبحث عن بدله على الطريق .